المجلة العربية للعلوم الانسانية - العدد الرابع - المجلد الأول ١٩٨١ ص ص (١١-٢٦)

نحو منهج تحليلي وإنساني في دراسة الأركيولوجيا

صلاح الدين سيّد البحيري

قسم التاريخ - جامعة الكويت

ملخص

يتناول الكاتب في هذا البحث موضوعاً عن درجة كبيرة من الأهمية، وهو العلاقة الوثيقة الموجودة بين العلوم الانسانية المختلفة التي تخدم علم التاريخ. ويرى أن علم الآثار يوجد على رأس هذه العلوم وأن دراسته لا ينبغي أن تكون دراسة وصفية انما دراسة تحليلية تهتم بالآثار من خلال اهتمامها بالانسان الذي خلفها وراءه. وأعطى الباحث نبذة عن ظهور علم الأركيولوجيا والتطورات التي مر بها، كما أشار إلى العلاقة بينه وبين علوم دراسة النصوص والكتابات القديمة، والأنثروبولوجيا والجيولوجيا والجغرافيا الأثرية والطوبوغرافيا، ودراسة شكل الأجسام، وعلوم وصف الأجناس.

ثم تناول المؤلف في هذه الدراسة مشكلة أبعاد علم الآثار الموضوعية والزمنية من حيث محاولة تحديد ما هو داخل في باب علم الآثار، وما هو منضو تحت لواء علم تاريخ الفن.

وختم الباحث كلامه بحتمية اهتمام الباحثين بالمنهج التحليلي والانساني في دراسة الآثار، وذلك لا يتحقق بدون الربط ربطاً عضوياً بين الأثر والانسان الذي صنعه والبيئة التي عاش فيها هذا الانسان، وروح العصر الذي يؤرخ له الأثر. وأهاب بأن ذلك يعني اشتراك متخصصين متنوعين في الدراسات الانسانية في فريق عمل متجانس، وأنه ينبغي التخلي عن الطريقة الفردية في البحوث التاريخية الآثارية من أجل استيعاب منهج البحث الجماعي في الدراسات الانسانية.

اهتمام الانسان بالتاريخ: ـ

إن اهتمام الانسان بمعرفة أخبار من سبقوه في الحياة من خلال تجاربهم وأفعالهم يعتبر في الواقع اهتماماً غريزياً . فلدى المرء دائماً شعور طبيعي بالانتماء إلى الماضي . . إلى آبائه وأجداده، بمعنى أنه شخصياً نتاج لجهد متصل بذله الأجداد على مر الأجيال . فالذي نعيش فيه الآن ما كان ليكون أصلاً بدون تلك الجذور العميقة التي تمتد وتمتد إلى عصور سحيقة مليئة بالخبرة الانسانية الناتجة من تفاعل الانسان مع ظروف البيئة، وكثيراً ما يحس المرء أن تفسير أي مشكلة أو ظاهرة تعرض له في حياته اليومية، لا بد من أن تكون له أصول في الماضي عليه أن يرجع إليها كي يدرسها ويتفهم دوافعها والظروف المحيطة بها، حتى ـ إذا ما حقق ذلك ـ يستطيع فهم كثير من ظواهر الحاضر . ومن هنا كانت حاجة الانسان إلى الماضي الذي ينظر إليه على أنه الأرض الخصبة التي غرست فيها جذوره، حتى نمت وترعرعت . وعلى ذلك نرى أن الحاضر في حاجة دائمة إلى الماضي، وليس العكس . فالحاضر دائم التمحيص فيما خلا من الزمان عله يجد هنا أو هناك تفسيرات للمشكلات والظواهر الانسانية التي تزخر بها أيام الحاضر، ومن هذا الشعور الدفين الذي يشعر الانسان بأنه ينتمي إلى جذور الماضي، نشأت الحاجة إلى دراسة نشاط أجداده الذي مارسوه في العصور الخوالي، أي إلى دراسة التاريخ الذي يضم تجارب الماضين .

وهذا يفسر ذلك الاهتمام الواسع الذي حظي به علم التاريخ من كل المجتمعات الانسانية في العالم على مر عصورها . ولهذا الاهتمام ـ في الواقع ـ ما يبرره . إذ كيف تستطيع هذه المجتمعات الانسانية الاستمرار في البقاء دون أن تعلم ماضيها ؟ أي وبمعنى آخر دون أن تتعرف على ذاتها من خلال دراسة أيام أجدادها ؟ وكيف تستطيع هذه المجتمعات أن تثبت وجودها أمام بعضها البعض دون أن يكون لديها احساس بحتمية تجميع الشواهد التي تدل على تراثها ؟ ولا يمكن أن يتحقق ذلك

دون مكافحة نسيان الماضي أي بتذكر التاريخ، وببعث الحياة في شواهده التي اندثرت، وعلى ذلك نقول إن التاريخ يمثل حاجة أساسية وعميقة من حاجات الانسانية المفكرة لدرجة أنه يمكن القول إنه لو لم يوجد التاريخ لكان من أوجب واجبات المجتمعات اختراعه!

والتاريخ في حد ذاته ليس شيئاً آخر سوى حياة البشر، ولا تختلف مادته عن تلك التي تتكون منها اللحظة التي نعيشها نحن الآن. ودراسة هذا العلم تتطلب في الواقع من الباحث معايشة أحداثه واكتساب خبرة بها حتى يكتب عنها وكأنه شاهد عليها رآها بنفسه رأي العين. ولا عجب اطلاقاً من هذا القول فكلمة history في أغلب اللغات الأوروبية مشتقة من أصل يوناني يعني المشاهدة والرؤية، إذ أن histor تعني الشاهد الذي يرى الأشياء والأحداث فيضيف بذلك إلى تجربته الشخصية المعرفة بتجارب الآخرين وذلك من خلال ما يراه من شواهد الغير بعد أن يتفهمها[١] (Hours, 1963 : 5) ولما كانت أخبار الماضين والشواهد الدالة عليها مختزنة في ذاكرة الماضي، فليس غريباً أن يهتم اليونانيون القدماء بانشاء معبد خاص للآلهة منيموزين Mnémosyn إلهة الذاكرة (التي كانت أيضاً أم الالهات التسع الخاصة بالتاريخ والموسيقى والكوميديا والتراجيديا والرقص والرثاء وشعر الغناء وعلم الفلك والبلاغة)[٢] . (Grand Larousse Encyclopédique) . وقد كان معبد الهة الذاكرة هذا ـ كما يقول الفيلسوف الألماني الشهير هجل Hegel- بمثابة مكان يقوم فيه المشتغلون بعلم التاريخ « بإيداع ما يفلت من أخبار الماضي لحفظه به للأبدية والخلود »[٣] (Hegel, 1946 : 17) وتفسير قول الفيلسوف هجل هذا من وجهة نظرنا هو أن المقصود بحفظه للأبدية والخلود يعني كي يكون رصيداً للانسانية تستخدمه وتستعين به إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك على مر الأجيال والعصور أي أن معبد الالهة منيموزين يمكن أن يكون مخزناً للمعلومات التاريخية عن العصور الخوالي أي أنه وبتعبير العصر الحديث « كومبيوتر » يختزن المعلومات في ذاكرته. وهذا في الواقع يعكس لنا عمق فهم اليونانيين وادراكهم لحتمية النظر إلى ذكريات الماضي نظرة تقديس واحترام، ومن هنا ما برر لهم فكرة تكريس

معبد خاص لالهة الذاكرة كي يتعبد في رحابه محبو أخبار الماضي!

وبتطور نظرة الانسان لماضيه، بدأ الاهتمام بظاهرة «تشكل بنية الحضارات» «morphologie des civilisations» التي لفت إليها النظر الفيلسوف والمؤرخ الألماني أوزفالد شبنجلر Spengler (Oswald)[٤] والتي تحدث عنها أيضاً المؤرخ الشهير توينبي في بداية كتابه عن «دراسة التاريخ»[٥] (Crubellier, 1961, P. 8) وسرعان ما اكتشف الانسان المهتم بدراسة التراث مدى الصعوبات والعراقيل التي تعترض سبيله نحو تحقيق مأربه، وأصبحت دراسة الماضي تستوجب أدوات بحث، ومناهج دراسة تستلزم صبراً طويلاً. ذلك أن التاريخ - كما قال المؤرخ الفرنسي Samaran, 1961, P. VII Charles Samaran (عضو الأكاديمية الفرنسية) نقلاً عن الأديب الفرنسي Paul Valéry - «أخطر مادة استطاعت كيمياء العقل بلورتها»[٦]! بل هناك من قال أن علم التاريخ «يقع في عداد أسمى المواهب التي يمكن أن يكرس الانسان لها نفسه»[٧]. ولذلك كان علم التاريخ من أصعب العلوم خصوصاً إذا لم يقف الباحث فيه عند حدود الرواية عن السلف، وتعدى ذلك إلى الدخول في مجال استخدام بصيرة الفهم والمعرفة والتفسير من أجل الكشف عن حقيقة هي دائماً حقيقة نسبية وليست مطلقة! إذ أنه لا يخفى على أحد أن تاريخ الماضي قد فهم بطرق مختلفة على مر عصور الاهتمام به، وأن كل جيل من أجيال الانسانية كان يضيف حجراً في بناء معبد الهة التاريخ الموقر Clio الذي لم يتم بناؤه بعد حتى الآن[٨]. وبسبب ذلك كان لا بد من أن يستند الباحث في عمله على شواهد وأدلّة لا يرقى إليها الشك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى يكشف عن كيفية حدوث وتطور الحدث التاريخي الحضاري.

علم الآثار في خدمة التاريخ: -

وكانت أهم هذه الشواهد التي اهتدى إليها الدارس والتي أدرك أهميتها هي مخلفات الانسان المادية التي تركها وراءه بعد أن استخدمها في أغراض حياته اليومية، خصوصاً في مجال العمائر والأثاث والأدوات والفنون الزخرفية المختلفة أي الآثار التي تدل على حياة الانسان.

والذي لفت نظرنا إلى أهمية هذا المجال هو تخصصنا الأصلي في الآثار والحضارة الاسلامية، حيث لاحظنا أن دراسة الآثار الاسلامية ممثلة في عمائرها بصفة خاصة، قد جذبت انتباه أولئك الذين لا ينتمون إلى عالم الاسلام بجمالها وروعة بنائها، ولكن هذا الانتباه كان ينقصه غالباً الفهم والادراك الواعي بأن هذه العمائر يمكن أن تكون تعبيراً حضارياً بكل ما تعني هذه الكلمة من معان. فمن خلالها يستطيع الدارس أن يتحسس طريقة نحو تفهم حياة المسلمين في كافة المجالات، دينية أو اجتماعية أو فنية أو صناعية. يستطيع الباحث أيضاً، من خلال النظرة المتعمقة في هذه العمائر أن يتعرف على الحياة السياسية والثقافية والتعليمية لأهل الاسلام.

وبهذه النظرة المتعمقة في دراسة الآثار، نختلف في منهج دراستها عن الطريقة القديمة التي كانت تفتقر إلى عنصر الربط بين هذه العمائر وبين المجتمعات التي شيدتها. فكانت الطريقة القديمة تعنى بمنهج وصفي لا تحليلي... وصفي يهتم بالشكل ولا يدخل في المضمون، وهذه الطريقة في رأيي ترتب عليها الحاق ظلم بين بصاحب الحق في الدراسة ونعني به الانسان الذي شيد هذا البنيان الذي ما كان لينشئه بغير هدف يقصده.

ولذلك نحن نرى وجوب وحتمية الربط بين هذه العمائر والمخلفات وبين المجتمعات البشرية التي شيدتها كتعبير اجتماعي وثقافي واقتصادي وتعليمي وديني أو بعبارة واحدة كتعبير حضاري اتخذ من طريق الصناعة والتشييد والفن سبيلاً من سبله المتنوعة للافصاح عن نفسه.

وفي هذا الاتجاه سار علماء الآثار والفنون المعاصرون في جامعات أوروبا ومنهم الأستاذ Jean Hubert الأستاذ بالسوربون المتخصص في آثار العصور الوسطى[٩]، (Hubert, 1961 : 1226 sq.) وكذلك الأستاذ Georges Daux[١٠] أستاذ الآثار في السوربون بباريس وأيضاً الأستاذ Paul-Marie Duval[١١] (Duval, 1961: 250 Sq.) فنرى فيما كتبه هؤلاء العلماء الآثاريون وغيرهم اهتماماً بعمق البحث في المدلولات الحضارية الانسانية التي تعكسها مخلفات البشر المادية. فيرى الأستاذ

Hubert مثلاً أن المؤرخ في دراسته للآثار ينبغي عليه الاهتمام بتحليل النموذج المعماري الأثري باعتباره إياه من الشواهد التاريخية الأثرية التي يدرس من خلالها الظروف التي أحاطت ببناء هذا الأثر في عصره، بمعنى أنه يهتم بدراسة وتحليل الوسائل التقنية التي اتبعها مشيدوه حتى يستطيع أن يتعرف على العلوم التطبيقية التي كانت سائدة في عصر انشاء الأثر نفسه. وكذلك يرى أن على المؤرخ ـ الآثاري (إذ لا بد من أن يكون المؤرخ على دراية بعلم الآثار) دراسة الدور الذي لعبه الأثر في ضوء النظم التي كان معمولاً بها في أيام انشائه. بل نراه يذهب إلى أبعد من ذلك ويقول ان المؤرخ لا بد أن يقوم بحفريات أثرية في موقع الأثر الذي يدرس حتى يحصل على معلومات عن الآثار التي ربما تكون قد سبقت أثره في الوجود، وكذلك قد يتطرق المؤرخ من خلال دراسته لأثره، إلى دراسة المدن والقرى القديمة التي كانت أو ما زالت تحيط بهذا الأثر، أي أن دراسة أثر واحد لا بد وأن تتم من خلال دراسة الموقع الأثري وأرباضه برمتها دراسة حضارية انسانية.

نشأة علم الأركيولوجيا: ـ

لعل من المفيد في هذا المجال أن نذكر بادىء ذي بدء تفسير الأستاذين جورج دو وبول ماري دوفال Paul-Marie Duval لكلمة Archéolgie التي نترجمها في العربية بعبارة «علم الآثار» فهما يتفقان على أنه ليس من السهل تحديد مفهوم هذا العلم، إذ أن الأصل اللغوي لهذه الكلمة (الذي يعني دراسة كل ما هو قديم) لا يعطي سوى تفسير غامضٍ لها. فالكلمة تعني في اللغة اليونانية: العصور المتباعدة من التاريخ، بل إنها كانت تعني أيضاً علم التاريخ نفسه، فمثلاً نجد المؤرخ دينس الكاري Denys d'Halicarnasse[١٢] الذي عاش في عصر أغسطس ـ يختار لكتابه الضخم، الذي ألفه عن تاريخ روما منذ الأزل وحتى تاريخ الحروب البونية[١٣] ـ عنوان Romaike Archaiologia Archéologie romaine بمعنى تاريخ روما وليس آثار روما. والغريب أن كلمة أركيولوجي الأوروبية هذه، ظهرت بعد ذلك في القرون الأولى من التقويم الميلادي بمعنى متخصص جداً. فقد كانت تعني في البلاد

التي تتحدث اليونانية طائفة من الممثلين الذين كانوا يمثلون على المسرح الأساطير القديمة . وفي هذا المعنى صلة للكلمة بعلم التاريخ نفسه ، والأغرب من ذلك أن هذه الكلمة اختفت فترة باختفاء الشيء الذي كانت تدل عليه ، حتى ان اللغة اللاتينية لا تضم في قاموس مفرداتها لا كلمة آثاري archéologue ، ولا كلمة archéologie آثار . ولكن هذه الكلمات عادت إلى الظهور بعد فترة كسوف كلي في القرن السابع عشر الميلادي ، فقد بعث كلمة archéologie من جديد في هذا القرن جاك سپون الليوني Le Lyonnais Jacques Spon وكان في ذلك يتأرجح بين شكلين للكلمة : الشكل الأول وهو archéologie ، والشكل الثاني كان archéographie الذي لم يدم استخدامه في حين انتشر استخدام الشكل الأول في كل اللغات الأوروبية الحديثة أو بتحديد أكثر دخل الاصطلاح في قاموس الكلمات الدولية التي تكونت شيئاً فشيئاً للتعبير عن أفكار علمية فرضت نفسها على لغات بعينها .

ولكن ما الذي تعنيه هذه الكلمة أو حتى ما الذي يعنيه الأركيولوجيون أنفسهم بهذا الاصطلاح ؟ انهم يختلفون فيما بينهم ويتناقضون ولنحاول الآن توضيح ذلك .

بادىء ذي بدء ينبغي أن نذكر أن كلمة أركيولوجيا في معناها العام grosso-modo لا تعني كل دراسة خاصة بالماضي ؛ ولكنها تعني دراسة « الأحجار القديمة » ، أو بمعنى أوسع دراسة كل الأشكال الملموسة والمرئية لمخلفات النشاط الانساني : كأن يكون مثلاً كهفاً طبيعياً سكنه أجدادنا القدماء بعد أن أعدوه بما يتناسب وأحوال ظروفهم ، أو أن تكون مجرد تيجان الأعمدة الأيونية في معبد الـ Erechthéion بالأركوبول في آثينا ، أو تيجان احدى الكنائس أو أحد المساجد الاسلامية ، وكذلك يمكن أن يكون مجرد آنية مساحيق الزينة التي كانت تستخدمها احدى المصريات ووجدت مع أدواتها بجوار مومياتها ، أو حتى أن تكون واجهة قصر المشتى الأموي . كل ذلك وغيره من آلاف الأشياء البسيطة أو التي تعتبر من روائع الأعمال الفنية التي خلفها الفن والصناعة الانسانية على مر

الأجيال والقرون، كل هذه الشواهد المادية للحضارة الانسانية تدخل تحت لواء الاصطلاح المتعارف عليه دولياً ونقصد به أركيولوجيا .

الأركيولوجيا والنصوص القديمة: -

وفي واقع الأمر يستطيع المرء أن يتعرف على أخبار الماضي من خلال منفذين الآثار والنصوص القديمة (archéologie et philologie) ، وتعني الكلمة الأولى دراسة المخلفات المادية للانسان، أما الثانية فتختص بدراسة النصوص القديمة وتفسيرها . فمثلاً الأهرامات المصرية والمعابد والكنائس والمساجد والتحف الأثرية المنقولة وما يجري مجراها تدخل ضمن مفهوم اصطلاح أركيولوجي؛ أما ما خلفه أفلاطون وأرسطو، وابن رشد وابن سينا، من فكر وفلسفة وطب يندرج تحت لواء علم دراسة النصوص القديمة philologie . أي أن كل الذي يصل إلينا عن طريق وسيلة التعبير اللغوي يكون Philologie ، أما الأشياء سواء كانت جميلة أو قبيحة فتخضع لكلمة أركيولوجي . وقد تبدو هذه المقارنة جميلة لأول وهلة، ولكن إذا ما سبرنا غور هذه التماثلية أو السيمترية اللطيفة، سرعان ما ينكشف الغطاء عن صعوبات وشكوك تزداد تعقيداً كلما ازْدَدْنَا لها دراسة . والواقع أن أول صعوبة تعترض الدارس للماضي هي أنه ليس في الامكان الفصل التام بين هذين الميدانين من الدراسة : التراث الفكري الانساني، والتراث المادي الانساني فالارتباط بينهما وثيق، فمثلاً في النصوص المصرية القديمة أو الآشورية واليونانية واللاتينية وكذلك الكتابات الأثرية الاسلامية[١٤] التي وصلتنا، نجد كثيراً من الايضاحات والاشارات التي لا غنى للآثاري عنها عند دراسته لمخلفات الماضي، فمنها نصوص تساعده في جعل الآثار تتحدث عن نفسها، ومنها كذلك ما يحكي عن أخبار الآثار والتحف التي درست معالمها واختفت، ففي دراسة النصوص القديمة اذن احياء لذكراها، وعلى ذلك يرى علماء الآثار المعاصرون أنه لا يمكن دراسة فن النحت اليوناني مثلاً بدون الرجوع إلى الكتاب الذي ألفه بلينوس الأكبر Pline L'Ancien في القرن الأول الميلادي[١٥] تحت عنوان التاريخ الطبيعي

Naturalis Historia في ٣٧ جـزءاً، إذ أن الأجـزاء الأخيرة مـن هـذا المؤلـف الضخم كرسها المؤلف عن « المعادن والفنون (Mineraux et Arts) التي تستخدم فيها هذه المعادن. ويجد الباحث في هذه الأجزاء قائمة بأسماء أهم الفنانين من العصور القديمة وأشهر أعمالهم الفنية. وليس Pline إلاّ مثلاً واحداً من بين الأمثلة العديدة للمؤلفين الذين ألفوا مؤلفات تحدثوا فيها عن الآثار العالمية، فبالنسبة للآثار العربية والاسلامية هناك ما ورد مثلاً في كتاب الأزرقي « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » أو كتاب « الفهرست » لابن النديم، أو كتب الرحلات مثل رحلة ابن بطوطة أو ابن جبير أو ناصر خسرو، أو كتب الخطط مثل كتاب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » « للمقريزي » فكل ما جاء في هذه الكتب وفي غيرها نصوص أثرية قديمة توضح وتعطي كثيراً من المعلومات عن آثار مادية قديمة سواء الدارسة منها أو الباقية. فاذا كان هذا هو حكمنا بالنسبة للنصوص التي وردت في الكتب التاريخية القديمة فكيف يكون الحكم اذن بالنسبة للنقوش المنحوتة على الصخر أو على الآثار؟ وكيف يكون الرأي أيضاً فيما يتعلق بالنصوص المكتوبة على أوراق البردي التي وصلت إلينا وكذلك المكتوبة على مواد أخرى مثل الأوستراكا والرق وغير ذلك.؟

والنتيجة التي نود الوصول إليها هي أننا نعتقد بوجود صلة عضوية لازمة بين علم الآثار القديمة وعلم قراءة النصوص القديمة، ولذلك نجد أن عالم اللغة لا يستطيع - وهو يقوم بدراسة النصوص - الاستغناء عن علم الآثار وكذلك لا يجد عالم الآثار مناصاً من استخـدام علم قـراءة النصـوص القـديمة والكتـابـات الأثـريـة Epigraphie عند دراسة الآثار. وهناك من يقول على الرغم من هذه الصلة العضوية أن علم الكتابات الأثرية التي تكون غالباً محفورة على الآثار أو محزوزة على التحف، تهم بالدرجة الأولى عالم الآثار، وعلى العكس من ذلك نجد أن القوانين والعقود واللوائح الدينية حتى ولو استلزم الأمر من أجل الكشف عنها استخدام معول الآثاري، تخضع لاهتمامات عالم اللغة... أي تدخل ضمن اطار علم الكلام والفكر الذي يعبر عنه هذا الكلام. ولعل أوراق البردي خير أمثلة

تؤيد ذلك. فحين يعثر عليها الآثاري، يعهد بها إلى عالم اللغة الذي يقوم بمحاولة فك رموز الكتابة المسجلة عليها. إذ أن من المسلم به من الناحية العملية والعلمية أن علم دراسة البرديات مستقل عن علم دراسة المباني القديمة ويفضل العلماء اعتباره من علوم اللغة. وعلى العكس من ذلك يعتبر العلماء علم الكتابات الأثرية المنقوش على الحجر ذا جذور عميقة في علم الآثار، وهو بذلك مزيج من علم اللغويات وعلم الآثار، وفضلاً عن ذلك نحن نرى أن لغة التعبير الانسانية سواء أكانت محفورة أو مدهونة (مرسومة) أو مطبوعة على الخشب أو على الطين أو على الورق أو في المعدن أو على الرق، نرى أن هذه اللغة لم تصلنا إلاّ في شكل رموز مرئية، وهي بهذا الجانب المادي عبارة عن أبجدية أثرية على شكل حروف تهم حاسة الجمال لدى الخطاط، ولذلك فان كل الدراسات التي تهتم بالكتابات ليست إلاّ دراسات تسهم في دراسة علم الآثار.

وفي الحق أن اعتماد كل من فرعي الأبحاث التاريخية على الآخر تتعدى مجرد بعض ملاحظات أبديناها فيما سبق ذكره، فالتبعية المتبادلة بين هذين الفرعين هي في الواقع تبعية مطلقة كلية... وليست جزئية. فعالم الآثار يجد لزاماً عليه ـ طالما وجدت نصوص مكتوبة ـ الرجوع إلى هذه النصوص في كل لحظة يحتاج إلى ذلك، وأيضاً عالم النصوص التاريخية ـ الأدبية لا يستطيع تفسير نصوصه وبعث الحياة فيها بدون مساهمة المخلفات المادية البشرية، أي الآثار باختلاف أنواعها سواء كانت مساجد ضخمة ومهيبة أو مجرد أشياء كانت البشرية تستخدمها في الحياة اليومية.

العلوم المساعدة لعلم الأركيولوجيا: ـ

ولا تقتصر دراسة الآثار على استخدام التاريخ فقط كعلم مساعد (أو العكس) بل هناك ميادين أخرى للبحث تفيد دراسة الآثار إفادات جمة. وعلى رأس هذه الميادين الأنثروبولوجيا بمعناها الضيق إذ كانت العادة قديماً فيما مضى تفسر هذه الكلمة على أنها تعني علم الانسان بكل نواحيه، وهي بذلك تعني علماً معقداً جداً. ولكن معنى الكلمة (anthropologie) أخذ يتحدد ويضيق رويداً رويداً حتى أصبح

الآن عبارة عن دراسة الأجناس البشرية من الناحية الفيزيقية، وحل اصطلاح Ethnologie محل كلمة (anthropologie) فيما يتعلق بالنواحي الأخرى التي تعنيها على قول Plester[١٦] (Daux, 1958) . غير أن الذي يعنينا هنا هو أن علم الأنثروبولوجيا يحاول عن طريق دراسة الهياكل العظمية البشرية تحديد الجنس أو الأجناس البشرية التي تنسب لها الآثار التي كشفت عنها الحفائر، كما أن الجيولوجيا والجغرافيا الأثرية، والطوبوغرافيا علوم تحدد البيئة الطبيعية التي تطورت ونمت فيها نشاطات الأجيال البشرية[١٧] (Hubert, 1961: 1236)فالمعروف مثلاً أن الزخرفة بكل أشكالها ورسوماتها تعتمد بقدر كبير على الحياة الحيوانية (La faune) والحياة النباتية (La flore) في المكان الذي تقوم فيه . ويرى علماء الآثار علاوة على ما تقدم أن علم السلالات البشرية (Ethnographie) مرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بعلم الآثار . ولنذكر هنا تفسير العالم الفرنسي P. Rivet لهذا العلم حيث يقول « تتجه الآراء في فرنسا الآن[١٨] إلى القول بأنه ينضوي تحت لواء مصطلح Ethnologie ، العلم الذي ينتج عن التوفيق بين العلوم المكرسة لدراسة الأجناس والحضارات والمجتمعات واللغات أي دراسة الأنثروبولوجيا (التاريخ الطبيعي للانسان)، ودراسة الأجسام (Sômatos) ، وعلوم وصف الأجناس Ethnographie بكل فروع هذه العلوم المختلفة: عصور ما قبل التاريخ، الآثار في العصور التاريخية المختلفة، والفنون الشعبية folklore وعلم الاجتماع، وعلوم اللغويات . »
وفي هذا المعنى هناك من يذهب إلى القول بأن الآثار الأميركية قبل عصر كريستوف كولومبس، أو الآثار الأفريقية، مثلاً لا يمكن ادراكها ولا فهمها بدون الرجوع دائماً إلى علوم وصف الأجناس البشرية، أي دراسة العادات والتقاليد والأديان المعاصرة التي جدت الحياة التقليدية في هذه الأماكن من العالم والتي تفيد في معرفة معلومات عن آثار الماضي[١٩] (Daux, 1958: 12 S q.) .

أبعاد علم الأركيولوجيا : ـ

ويكفي أن نقول في هذا المجال أن حدود علم الآثار لم تتحدد بشكل حاسم حتى الآن، وذلك لأنه في حاجة دائمة وماسة إلى مساندة علوم أخرى تتصل به

بأواصر القربى . وفي الحق أننا لا نرى في ذلك أي شيء غير طبيعي، فتداخل العلوم بعضها في بعض نلاحظه كل يوم في كل مجالات الأبحاث العلمية . وعلى الجملة نرى أن كلمة آثار archaeology تعني ـ سواء من ناحية المعنى اللغوي أو من ناحية الاستخدام والممارسة ـ فكرة الدراسات القديمة . فقد ظلت الدراسة في علم الأركيولوجيا لمدة طويلة لا تعني سوى دراسة العصور الكلاسيكية أو المصرية القديمة .

غير أنه ليس من الصعب تحديد الحد الأعلى الزمني للآثار . فهو يبدأ منذ قام نشاط انساني في العصور السحيقة في القدم أو ما يسمى بآثار عصور ما قبل التاريخ . أما فيما يتعلق بتحديد الحد الأسفل الزمني للآثار (أي العصر الأسفل)، فانه وبكل صراحة من غير الممكن تحديده، وليس للمنطق في هذه النقطة أية سيادة فمثلاً هناك ما يسمى بآثار العصور الوسطى، ولكن هناك من يقول بعدم وجود آثار القرن التاسع عشر الميلادي ولا حتى آثار القرنين أو الثلاثة السابقة عليه . ومع ذلك يجد المرء أحياناً ما يسمى بآثار عصر النهضة الأوروبية، وهذا القول ناجم عن أن الاعتقاد الشائع هو أن فكرة التباعد الزمني والتوغل في الماضي مندمجة مع اصطلاح أركيولوجيا، ولكنه رغم كل ذلك فهو كما يقول الأستاذ جورج دو اصطلاح غامض . فمثلاً ليس هناك من شك في أن تحديد حدود عصر النهضة وآثاره ـ إذا ما حاولنا ذلك من خلال أمثلة متباعدة من الناحية المكانية ـ لا يمكن أن يتم التحديد بدقة علمية متناهية . إذ أن دراسة التصوير الهيلينستي أو الروماني أو البحث في النحت المصري القديم أو في الخزف والفخار اليوناني أو المساجد والقصور والتحف الاسلامية المختلفة، فإن ذلك يمكن أن يطلق عليه اصطلاح أركيولوجيا . أما إذا ما درس المرء التصوير الرومنتيكي أو الأدوات والتحف الخزفية التي اشتهرت بها مدينة Sèvres ، أو أعمال النحات Barye (نحات فرنسي عاش من ١٧٩٦ إلى ١٨٧٥ م) أو النحات Rodin (نحات باريسي وهوفنان واقعي وقوي عاش من ١٨٤٠ إلى ١٩١٧)، فان كل ذلك ليس من الأركيولوجيا في شيء في نظر الآثاريين المعاصرين ومنهم جورج دو ويول ماري دوڤال وغيرهما .

ونجد في ذلك عدم منطق يشيع في النفس الضيق والحرج لأن معنى ذلك الذي سقناه آنفاً، أننا أسرى كلمة ذات مدلول زمني، بعثت إلى الوجود في القرن السابع عشر الميلادي، أي في وقت كانت العيون فيه متجهة نحو العصور القديمة الكلاسيكية.

ولكن المعروف أن هذا الاصطلاح قد ازداد معناه غنى وتضخماً على مر الزمن، طالما أن ميدان الدراسة فيه قد أخذ في الاتساع ليشمل ميادين أخرى فرعية. ولكن على الرغم من ذلك ظل اصطلاح أركيولوجيا « محشوراً » في قالب معناه الأصلي. وكشفت الدراسة الحديثة اليوم أنه اصطلاح قاصر عن أن يحتوي كل ما يمت بصلة بهذا الموضوع. إذ أنه لقصور وضيق معناه يجد المرء نفسه في حيرة: كيف نسمي مثلاً العلماء الذين يتوفرون على دراسة الفنان الرسام الفرنسي Delacroix (١٧٩٨ - ١٨٦٣) أو النحات Rodin ؟ بكل تأكيد سيتبادر إلى الذهن تسميتهم بعبارة « مؤرخي الفنون » خصوصاً وأنه يوجد في كثير من الجامعات الأوروبية كرسي استاذية مخصص « للآثار ولتاريخ الفن »، ولكن لا ينبغي أن يستشف المرء من ذلك وجود ميدانين متميزين من ميادين الدراسة في هذه المجالات، ولكنه ميدان واحد يختص بعصور متميز كل منها عن غيره. وكان ذلك يبعث أحياناً على الخلط حتى في الكتالوجات المنهجية المسجل بها أسماء المجموعات الفنية بالمكتبات[٢٠]، لدرجة أن احدى دور النشر الفرنسية قامت بنشر مجموعة عن الآثار وتاريخ الفن بطريقة قالبية دون ما تميز. وهي المجموعة الضخمة التي كتبها كل من Perrot و Chipiez تحت عنوان « تاريخ الفن في العصور القديمة »[٢١]، ولم يكن مفهوم المؤلفين عن هذا الموضوع يختلف عن أنه مجرد دراسة للآثار المصرية والشرقية واليونانية... إلخ.

بماذا نخرج اذن من هذه الدراسة؟ هل يمكننا الميل إلى القول بأن علم الأركيولوجيا يختص - بسبب تاريخ الكلمة نفسه - بمخلفات الانسان الذي عاش في العصور القديمة؟ وهل يعني ذلك أن اصطلاح « تاريخ الفن » يطبق على مخلفات الناس الفنية ابتداء من عصر النهضة الأوروبية وحتى أيامنا هذه؟ وكذلك هل

يمكن استخدام هذا الاصطلاح بالتواكب مع كلمة أركيولوجي بالنسبة لفنون الأيام السابقة على عصر النهضة؟

وللاجابة على هذه التساؤلات لا يمكننا حقيقة انكار أن مصطلح « أركيولوجيا » أعم وأشمل من مصطلح « تاريخ فن ». إذ أنه يختص بدراسة نواح من النشاط الانساني يمكن أن تدخل في اطارها صور من الفن، غير أنه توجد ـ في كثير من الأحيان أشياء فنية متناهية في جمالها لدرجة أن دراستها من خلال وجهة النظر الفنية والجمالية تطغى على القيمة الأثرية لها. ولذلك يمكن أن تدخل دراستها من خلال تاريخ الفن.

بذلك نرى أن علم الآثار مرتبط بعلوم مساعدة عديدة وشاملة ومتشابكة ويستلزم تضافر العلماء المتخصصين وتعاونهم من خلال فريق عمل وذلك من أجل تحقيق نظرة الشمولية في الدراسات الانسانية التي يمكن أن نشبهها بالأواني المستطرقة. ولعلنا بذلك نكون قد أزلنا ولو قدراً بسيطاً من التراب الذي يغطي عادة المخلفات الأثرية الانسانية، لنرى الطريق الصحيح في الدراسة بعيون نافذة حتى نستطيع سبر غور الشواهد التاريخية الانسانية بكافة الطرق والمعاول المتاحة من أجل رؤية أعمق لحقائق الحضارة الانسانية.

ولعل هذه النظرة الشاملة والكلية لعلمي التاريخ والآثار والعلوم المساعدة الأخرى المشار إليها آنفاً، أو بعبارة مختصرة لعلوم الحضارة الانسانية، تكون أوضح ما يكون عند دراسة الآثار الاسلامية التي يقول عنها عالمها الفرنسي G. Migeon في الكتاب الذي ألفه عام ١٩٢٧ عن الفن الاسلامي[٢٢] (Migeon, 1927) ويقول أنه « تجب الاشارة هنا إلى أن الآثار الاسلامية تعتبر أغنى من كل فروع الآثار العالمية الأخرى، خصوصاً فيما يتعلق بما يسمى بالفنون الصناعية ». وهذه الملاحظة التي أبداها ميجون لها بطبيعة الأحوال ما يبررها: إذ أن آثار العالم الاسلامي مليئة بأمثلة من التحف والعمائر التي قام على تنفيذها مهرة الصناع والمهندسين اضافة إلى الفنانين.

ومن هنا تبرير رأينا السابق والذي قلنا فيه بوجوب الربط بين الآثار وبين

المجتمعات التي شيدتها كتعبير حضاري عن حياتها يعبر عن أوجه النشاط الاجتماعي المختلفة .

« الخاتمة »

وتطبيقاً لهذا المنهج الذي قدمناه ، لا ينبغي النظر إلى العمائر الاسلامية على أنها مجرد مهرجان من القباب والمآذن التي تـزينهـا زخـارف الأرابسـك محفـورة أو مرسومة ، أو تكسوها بلاطات القاشاني ، ولكنها في الحقيقة تعكس لنا ثقافة غنية وعظمية وحدت أقطاراً امتدت في شريط من أطراف الصين شرقاً وحتى اسبانيا غرباً وعمرت أكثر من ألف عام (Michell, 1978: 2) ودراستها بالطريقة الوصفية التي أشرنا إليها لا تكفي أبداً للكشف عن النواحي الانسانية فيها . فدراسة الآثار اذن لا يمكن أن تتم من خلال وصف الأشياء الجامدة التي يعثر عليها الآثاري ولا من اعطاء فكرة سريعة عن أوجه استخداماتها ، ولكن ينبغي أن يتبنى الباحث في دراستها منهجاً تحليلياً وإنسانياً عن طريق تحليل كل معطيـات الأثـر التي يمكـن أن يخرج بها الآثاري ، حينما يربط ربطا عضوياً بين الأثر والانسان الذي صنعه ، والبيئة التي عاش فيها هذا الانسان ، وروح العصر التي يؤرخ له الأثر . وهذا يعني اشتراك متخصصين متنوعين في الدراسات الانسانية ولكن يجمعهم كلهم خط واحد ينتهي بهدف واحد هو تحقيق الكشف عـن وجـه مـن أوجـه الحضـارات الانسانية ، من خلال بعث الحياة في الأشياء الميتة التي تكشف عنها معاولهم . إذ أن دراسة الآثار لا تتم في المكتبة وحسب ، ولكن أيضاً في مواقع الحفائر الأثرية ، وهذا يحتاج من الآثاري وغيره من المتخصصين المهتمين بهذا الميدان ، أن تكون لديهم ـ إلى جانب روح العلم ـ روح المغامرة وحب الجهاد في سبيل الكشف عن الجديد ـ القديم الذي لا يخلو من أخطار وآلام لا تكون أبداً مبعثاً لتثبيط الهمم ، بل على العكس تكون دافعاً للآثاري وصحبـه إلى مـزيـد مـن الكشـف العلمـي الآثاري الانساني .

المراجع العربية:

ـ الدكتور حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، نشر دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٠ .

- الدكتور عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، نشر دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٣.
- الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، بيروت ١٩٧٠.

المراجع الأجنبية:

- Aron, Raymond, *L'Histoire et ses Interprétations,* Entretiens autour de Arnold Toynbée, éd. de l'école Pratique des Hautes Etudes-Sorbonne, Congrès et Colloques, Vol. III, Mouton et Co., Paris – La Hay 1951.
- Bachet, *Les éditions de l'Illustration,* Paris 1951.
- Crubellier, Maurice, *Introduction Générale à l'oeuvre d'Arnold Toynbée,* in l'Histoire et ses Interprétations, Paris – La Haye 1951.
- Daux, Georges, *Les Etapes de l'Archéologie,* éd. P. U. F. Paris 1958.
- Duval, Paul-Marie,"Archéologie Antique," in *L'Histoire et ses méthodes,* Vol. XI de *L'Encyclopédie de la Pléiade,* éd. Gallimard, Paris 1961.
- Grand Larousse Encyclopédique.
- Hegel, G.W.F., *Leçons sur la philosophie de l'Histoire,* traduction Française de J. Gibelin, Vrin, Paris 1946.
- Hours, Joseph, *Valeurs de l'histoire,* éd. P.U.F., Paris 1963.
- Hubert, Jean: "La Géographie Archéologique," in L'Histoire et ses méthodes, Vol. XI, de L'Encyclopédie de la Pléiade
- Hubert, Jean; *L'Archéologie Médiévale,* in L 'Histoire et ses méthodes. la Pléiade., éd. Gallimard, Paris 1961.
- Marçais, G.; L'Art Musulman., Paris 1962.
- Michell (editor), Architecture of Islamic World, its History and Social Meaning. ed. Thames and Hudson, London 1978.
- Migeon, G.; Manuel d'*Art Musulman,* 2 vol., Paris 19.
- Perrot et Chipiez, *Histoire de l'Art dans l'Antiquité,* Paris 1882-1914.
- Rashed et Hawary, *Stèles Funéraires,* Catalogue général du Musée Arabe du Caire, éd. I.F.A.O., Le Caire 1932.
- Rice, David Talbor, *Islamic Art,* ed. Thames and Hudson, London 1965.
- Samaran, Charles; Préface de "L'Histoire et ses méthodes," "Préface", in Encyclopédie de la Pléiade, éd. Gallimard, Paris, 1961.
- Sédillot, René, *L'histoire n'a pas de sens,* éd.
- Wiet, G., Stéles Funéraires, Catalogue générale du Musée Arabe du Caire, Le Caire 1936-1941.